بين العدل والحرية

مسألة واحدة تلقي في كل مكان متحضر وفي كل بيئة مثقفة يلقيها بعض الناس على بعض ويلقيها الأفراد على أنفسهم عن إرادة وتعمد واختيار حزينا وعلى غير إرادة ولا شعور ولا اختيار حينا آخر.

يلقيها بعض الناس على بعض ويلقيها الأفراد على أنفسهم عامدين إلى الدرس والتحليل محاولين أن يجدوا لها جوابا شاعرين بذلك مريدين له وتلقيها الحياة العاملة على الأفراد والجماعات في كل لحظة وعند كل فرصة ويعجز الناس في كثير من الأحيان عن أن يجدوا لها حلا حاسما حازما أو جوابا قاطعا ساطعا وهم من أجل ذلك يضطربون في حيرة متصلة تظهر آثارها واضحة في أقوالهم حين يتحدثون وفي أعمالهم حين يعملون.

أيمضي العالم على تحقيق العدل أم إلى تحقيق الحرية؟ هذه هي المسألة أو قل هي المشكلة التي ألقاها القرن التاسع عشر على بعض العقول في أوربا والتي جعلت تتسلط على هذه العقول قليلا قليلا حتى شغلتها واستأثرت بها ثم تجاوزتها إلى عقول أخرى ثم جعلت تتنزل شيئا فشيئا من الطبقات المفكرة الممتازة إلى الطبقات الوسطى ثم إلى الطبقات الدنيا ثم استأثرت بالتفكير السياسي كله في أواخر القرن الماضي حتى انقسمت لها أوربا شيعا وأحزابا ثم عظم استئثارها بالحياة الأوروبية في أوائل هذه القرن ولا سيما في أعقاب الحرب العالمية حتى اضطربت لها أوربا اضطرابا شديدا واضطرب لها العالم خارج أوربا اضطرابا شديدا أيضا كان من آثاره أن ثارت الحرب العالمية الثانية وصبت على العالم ما صبت من الشر والهول.

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية كما انتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تجد إحداهما جوابا لهذه المسألة قائمة ولكنها ازدادت شدة وإلحاحا وأن المشكلة ظلت قائمة ولكنها ازدادت صعوبة وتعقيدا والله وحده يعلم أيحتاج العالم إلى حرب ثالثة لتجيب عن هذه المسألة

وتحل هذه المشكلة أم يستطيع السلام المنظم و غير المنظم أن يخرج الإنسانية من حيرتها ويسلك بها إحدى الطريقين: طريق الحرية أو طريق العدل.

ومن الخطأ أن نظن أن هذه المسألة حديثة لم يعرفها الإنسان إلا حين ألقاها القرن التاسع عشر وإنما هي مسألة قديمة عرفها الإنسان منذ عصور بعيدة جدا وقد يستطيع الفلاسفة الذين يدرسون التاريخ ويحللونه أن يستقصوا أصل هذه المسألة وأن يتتبعوا تطورها منذ فرضها العقل على الإنسان المتحضر فيما يسمونه فجر التاريخ وليس من شك في أن الفلاسفة قد فعلوا فدرسوا الحضارة منذ نشأتها واستقصوا أمر الصراع بين الحرية والعدل في أطوار الرقي الإنساني على اختلافها ثم انتهوا إلى ما انتهى إليه العالم افن من هذه الحيرة المتصلة والاختلاط الشديد: فمنهم من اثر الحرية لأنها تحقق كرامة الإنسان وتتيح له أن يكمل نفسه ويظفر بشخصية موفورة تامة وفريق منهم أثر العدل لأنه يرضى حاجة الإنسان إلى المساواة ويتيح له حظا من الإنصاف يعصمه من استعلاء القوي على الضعيف وتحكم الغني في الفقير وتفوق القادر على العاجز وفريق آخر حاول أن يلائم بين العدل والحرية فلم يبلغ من هذه المحاولة شيئا ذا خطر لأن العدل المطلق والحرية المطلقة لا يستطيعان أن يلتقيا إلا إذا قيدت الحرية وقيد العدل وانتقص كلاهما من أطرافه فشوه خلقه تشويها ما هنالك يستطيعان أن يلتقيا لقاء لا يخلو من تشويه تتأثر به الحياة الإنسانية نفسها فتدفعها الحرية إلى العمل والنشاط ويدفعها حب الإنسانية نفسها فتدفعها الحرية إلى العمل والنشاط ويدفعها حب العدل إلى الاختلاف والاختصام وتنتهي إلى هذا التطور الذي تشهده الآن كما شهدناه في العصور المختلفة والذي يبث فيها العداوة والبغضاء ويملؤها شرا ومكرا وكيدا ثم يدفعها حينا بعد حين إلى حرب من هذه الحروب التي لا تبقى ولا تذر والتي تزداد على مر الأيام بشاعة ونكرا.

ومن الخطأ كذلك أن نظن أن هذا الصراع بين الحرية والعدل مقصور على بيئة إنسانية دون بيئة أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان وإنما الواقع الذي نستطيع أن نلاحظه في كل وقت هو أن هذا الصراع قائم في البيئات الإنسانية المثقفة كلها وفي أجزاء العالم المتحضر كلها أيضا يقوى ويعنف حيث ترقي الحضارة وتتفوق ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة وتميل إلى الخمود ولكنه موجود دائما ومتصل على كل حال ويكفي أن ننظر إلى العالم المتحضر الذي نعيش فيه اليوم لنتبين أن الصراع بين الحرية والعدل عنيف إلى أقصى غايات العنف في أوربا وأمريكا وان عنفه في هاتين القارتين أشد منه في القارات الأخرى وإن كان يختلف قوة وضعفا باختلاف الأمم والشعوب وليس المهم أن ندرس هذا الصراع بين العدل والحرية درسا مفصلا مستقصي فذلك شيء لا سبيل إليه بل لا حاجة إليه الآن وإنما المهم أن نلاحظ مظاهر هذا الصراع في أوربا وأمريكا وفي بلاد الشرق الأدنى خاصة لنتبين إلى أي

طريق نحن مسوقون وإلى أي غاية نحن مدفوعون وليس من شك في أن إلغاء المسافات في الزمان والمكان قد جعل شرقنا الأدنى متصلا بأوربا وأمريكا اتصالا يوميا دقيقا بحيث لا نستطيع أن نفلت مهما نحاول ذلك من التأثر بما يحدث في هاتين القارتين من الأحداث والخطوب وما يثار فيهما من المصاعب والمشكلات ومن المحقق أن الشرق الأدنى لو استؤمر حين أثيرت الحرب العالمية الأولى لآثر العافية ولتمني أن يلتزم هذه الحيدة التي تجنبه أخطار الحرب وأهوالها ولكنه لم يستأمر ولم يكن من الممكن أن يستأمر لأنه كان ميدانا من ميادين الحرب وغرضا من أغراضها وهو كذلك لم يستأمر حين أثيرت الحرب العالمية الثانية ولم يكن من الممكن أن يستأمر حين أثيرت الحرب العالمية الثانية ولم يكن من الممكن أن يستأمر حين أثيرت الحرب العالمية الثانية ولم يكن من الممكن أن يستأمر لأنه كان ميدانا من ميادين الحرب وهدفا من أهدافها وأكبر الظن أنه لن يستأمر إذا أثيرت حرب عالمية ثالثة لأنه سيكون من أهم ميادين الحرب ومن أعظم أغراضها خطرا.

فينبغي للشرق الأدنى إذن أن يوطن نفسه على أنه جزء من هذا العالم المتحضر الحديث الذي يضطرب أشد الاضطراب بهذا الصراع العنيف المتصل بين الحرية والعدل متأثر سواء أراد أو لم يرد بهذا الصراع وبما يكون له من أثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخير أن يوطن نفسه على ذلك وإن لم يعد له عدته وأن يقبل عليه مريدا لهذا الإقبال لا مكرها عليه إكراها ولم يخطئ الشاعر حين قال:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

وليس للشرق الأدنى بد من أن يركب هذه الأسنة فإذا أراد أن يجيد عنها أو أن يتجنب ركوبها فلن يجد إلى ذلك سبيلا وحسبه أن يعلم أن هذا ليس مقصورا عليه وإنما هو المصير المحتوم لكل جزء من أجزاء العالم بعد أن ألغيت مسافات الزمان والمكان والناس يقولون في كثير من الصواب عن العالم الآن موضوع للنزاع بين قوتين عظيمتين تزيد كل منهما أن تسيطر عليه وتنشر فيه سلطانها وتخضعه لما يقتضيه ذلك من مذاهبها في السياسة ونظمها الاجتماعية المختلفة وهاتان القوتان قد تعاونتا أثناء الحرب العالمية الثانية فاتفقنا ما ظلت الحرب قائمة حتى كسبنا النصر ثم لم تستطيعا أن تمضيا في الاتفاق فعجزنا عن تنظيم السلم وقد انتهت الحرب في أوربا منذ عام وبعض عام وما زال المنتصرون عاجزين عن أن يقروا السلم وينظموه لأنهم عاجزون عن أن يتفقوا فيما بينهم وليس الخلاف بينهم مقصورا على تقسيم الغنائم وتوزيع الأسلاب ولكنه أبعد من ذلك مدى وأشد من ذلك عنفا لأنه يتجاوز الدول المنتصرة نفسها لما تملك من حول وطول ومن قوة وأبد إلى الشعوب التي تمثلها هذه الدول المنتصرة نفسها لما تملك

من حول وطول ومن قوة وأيد إلى الشعوب التي تمثلها هذه الدول فالشعوب نفسها مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف يريد بعضها أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعا للحرية لا متبوعا ويريد بعضها الآخر أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافلة تتحقق أن سمح العدل بتحقيقها ويضحي بها إذا لم يكن بد من التضحية بها في سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس.

ثم تختلف الشعوب في حياتها الداخلية هذا الاختلاف نفسه بين الدول فتكون فيها الأحزاب المتباينة التي يذهب بعضها مذهب الحرية الكاملة ولا يتردد في التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية ويذهب بعضها يتردد في التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية ويذهب بعضها مذهب العدل الشامل ولا يتردد في إهدار الحرية إذا اقتضى تحقيق العدل إهدارها.

وكذلك يشهد العالم هذا المنظر الرائع الغريب دول تختلف فيما بينها تختصم حول الحرية والعدل وأحزاب تختلف فيما بينها تصطرع حول الحرية والعدل وأفراد يختلفون فيما بينهم يتمارون في الحرية والعدل والحياة تمضي متعثرة في طريقها لا تكاد تخطو خطوات إلى أمام حتى تضطر إلى أن تنحرف إلى يمين أو إلى شمال وقد تضطر أحيانا إلى أن ترجع القهقرى وتعيد للناس نظما كانوا يظنون أنها قد ذهبت إلى غير رجعة ومضت إلى غير مأب وقد بلغ من اضطراب الشخص الواحد أن يذهب إلى مذهب الحرية إذا أصبح فلا يكاد يمسي حتى يذهب مذهب العدل وقد يبلغ من اضطراب الشعب الواحد أيضا أن ينحرف اليوم إلى يمين ليؤيد الحرية فإذا يبلغ من اضطراب الشعب الواحد أيضا أن ينحرف اليوم إلى يمين ليؤيد الحرية فإذا كان الغد انحرف على شمال ليؤيد العدل وهو بهذا التذبذبات بين اليمين والشمال لا يحقق حرية ولا عدل وإنما يمضي في الاضطراب ويغرق في الارتباك إلى أذنيه وقد يغرق معه أمما وشعوبا أخرى لأنها خاضعة له أو متأثرة به قليلا أو كثيرا.

هذه كلها حقائق يسيرة قريبة يلاحظها الإنسان حين يقرأ صحف الصباح وحين يقرأ صحف المساء وكل ما في الأمر أنه ينظر إليها نظرة سريعة غير متعمقة ولا مستأنية ينظر إليها كما ينظر إلى أحداث الحياة اليومية التي يغيرها مر الغداة وكر العشي فالشعب الإنجليزي مثلا حين تخلص من سلطان المحافظين في العام الماضي وألقى بمقاليد الأمر إلى العمال لم يزد على أن انحرف من طريق الحرية المحافظة إلى الشمال حيث العدل أو قل أن شئت حيث الطموح إلى العدل وحيث التضحية وقل أن شئت حيث الاستعداد للتضحية بكثير من حرية الفرد والجماعة في سبيل تحقيق هذا العدل ولكن الشعب الإنجليزي نفسه حين يضطر حكومة العمال إلى أن تلتزم سياسة محافظة خارج بريطانيا العظمى فلا تفرط في شيء من مستعمراتها ولا

تتخلى عن قليل من مصالحها في البلاد التي تخضع لنفوذها قليلا أو كثيرا وإنما تستمسك بالإمبراطورية كما تلقتها من حكومة المحافظين وتحافظ على مصالحها في أقطار العالم كله على النحو الذي كان يصطنعه المحافظون أقول أن الشعب البريطاني حين يضطر حكومة العمال إلى أن تسلك هذه الطريقة لا يزيد على أن يتراجع فينحرف من شمال إلى يمين ويضحي بشيء من العدل ليستبقى حريته تلك التي تاحت له أن يستذل ويستغل جزءا عظيما من الأرض والشعب البريطاني حين يتخلص من سلطان المحافظين ويجعل أمره إلى العمال ويتيح لرئيس وزرائه ووزير خارجيته أن يتحدثا عن الشعوب في تقرير مصيرها وعن حق العالم في أن يخلص من الاستعباد والاستبداد يخطو خطوة إلى يمين في سبيل الاحتفاظ بحريته القديمة التي كانت تتيح له أن يتحكم في مصير الشعوب وإذا هو يذهب في سياسته مع اليونان ويوجوسلافيا المذهب الذي كان يذهبه المحافظون وهذه الشعب البريطاني نفسه يخطو خطوة إلى شمال حين يعلن رئيس وزرائه ووزير خارجيته أنه يريد الجلاء عن مصر بلا قيد ولا شرط ثم لا يلبث أن يعود أدراجه بتأثير المحافظين وإذا هو يشترط للجلاء شروطا تلغيه ويقيده بقيود تمنعه من الحركة والنشاط لأنه يضحي بالعدل الدولي في سبيل حريته اللي تتيح له أن يتحكم في مصير مصر فلا يجلو عنها إلا حين يريد وبالشروط والقيود التي يريد أن يعرضها وهذا الشعب البريطاني نفسه يخطو خطوات إلى الشمال حين يؤمم طائفة من المرافق البريطانية ثم يتردد ويتراجع حين يعرض لتأميم طائفة أخرى من المرافق يلغى حرية الأفراد والجماعات في سبيل العدل ولكنه يلغيها بمقدار لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا ويحتفظ بهذه الحرية للأفراد والجماعات بالقياس إلى بعض المرافق الأخرى لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا أيضا فهو مذبذب بين الطموح إلى العدل والاحتفاظ بالحرية وكل المصاعب التي يلقاها وكل المشكلات التي تأتلف منها حياته إنما تأتيه من هذا التذبذب بين العدل الذي يقتضيه التضحية بحرية التسلط على الأمم والشعوب والتحكم في مصير الدول والأقطار وبين الحرية التي تحتفظ له بالقدرة على أن يتحكم في مصير هذه الأمم والشعوب.

والشعب الفرنسي يذهب هذا المذهب نفسه فهو يتذبذب بين الحية والعدل يقبل على انتخاباته العامة في أكتوبر الماضي فيندفع اندفاعا قويا إلى شمال ويؤلف الكثرة في جماعته التأسيسية من الشيوعيين والاشتراكيين وإذا هو يؤمم طائفة من مرافقه ثم لا يلبث أن يأخذه الخوف ويملكه الذعر وإذا هو يرفض الدستور الذي وضعته له هذه الجماعة التأسيسية الشمالية فإذا طلب إليه أن ينتخب جماعة تأسيسية أخرى انحرف إلى يمين فألف كثرتها من المعتدلين وجعل اليساريين لهم تبعا أو شيئا يشبه التبع ودل بذلك على أنه يريد العدل ولكن بمقدار ويحرص على الحرية أكثر مما يحرص على أي شيء آخر وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى

حديثين دار احدهما بيني وبين رجل من عامة الشعب في مارسيليا قبل رفض الدستور بيوم واحد فقد قال لي هذا الرجل إنه سيرفض الدستور إذا كان الغد لأنه لا يريد دستورا يساريا ولكنه سيصوت لليساريين بعد ذلك لأنه يريد الإصلاح الاجتماعي ولا يريد برلمانا رجعيا أو حكومة مسرفة في الاعتدال ودار الآخر بيني وبين أستاذ من أساتذة السوربون في باريس بعد أن رفض الدستور بيومين وهذا الأستاذ يساري الميل متطرف في حبه لليسار ولكنه رفض الدستور مع أصحاب اليمين فلما كلمته فيذلك قال: نعم رفضت الدستور لأني لا أريد أن أخضع للرقابة فيما أنشر من الكتب وما أذيع من الفصول وما ألقى من الدروس والمحاضرات فهو إذن يريد العدل ولكن بشرط ألا يقيد هذا العدل حريته حين يكتب أو يقول وصاحب الصناعة يستطيع أن يقول كما قال هذا الأستاذ نفسه رفض الدستور اليساري لأنه لا يريد أن يخضع للرقابة فيما تنتج مصنعه وفيما تغل عليه من ربح وكذلك يتردد الفرنسيون كما يتردد جيرانهم البريطانيون بين العدل والحرية يطمحون إلى العدل ولكنهم يخافون منه إذا كمل وشمل كل شيء ويحرصون على الحرية ولكنهم لا يكرهون تقييدها حين تضطرهم الظروف على ذلك وقل أن شئت إنهم يؤثرون الحرية على كل شيء ولا يضحكون بقليل منها إلا ليحتفظوا بما يستطيعون أن يحتفظوا به فهم يتحدثون عن العدل كما كان مستر تشرشل يتحدث عن استقلال الشعوب أثناء الحرب يتحدثون عن العدل على انه من هذه المثل العليا التي يتوق الإنسان إليها ويجد في تحقيقها ولكنه لا يبلغها لأنها من الظروف واللطف والأناقة بحيث تحسن الدلال وتمتنع على الطامحين إليها والطامعين فيها تغريهم بنفسها وتدعوهم إلى محاسنها ولكنها تنأي عنهم كلما دنوا منها وتتركهم يتمثلون قول جميل لبثينة:

ومنيتني حتى إذا ما ملكتني بقول يحل العصم سهل الأباطحِ

تناءيت عني حين لا ليَ حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانحِ

وهم يحبون من المثل العليا هذا التدلل والامتناع وهم يستمتعون بلذة هذه النار التي تضطرم بين جوانحهم وتحرق قلوبهم شوقا إلى العدل وهم يكرهون أن تخمد هذه النار وأن تبرد جوانحهم وأن يبلغوا العدل فيطمئنوا إلى أنهم بلغوه وهم يحبون الحرية على نحو آخر يحبون أن يأخذوها بين أيديهم ويضموها إلى صدورهم ويستمتعوا منها بأعظم حظ ممكن لا ينالون منها حظا إلا طمعوا في حظ أعظم منه ولا يفقدون منها شيئا غلا تقطعت قلوبهم عليه حسرات ذلك لأن هناك فرقا خطيرا جدا بين الاستمتاع بالحرية والاستمتاع بالعدل فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة لأنه يدفع إلى العمل والنشاط ويغري بالكد والجد ويمنع الإنسان من أن يريح ويستريح أما الاستمتاع بالعدل فمريح حقا لأنه يقتل الطمع ويغري بالرضا ويزين القناعة في

القلوب أو قل يفرض القناعة على القلوب فرضا فأي غرابة في أن يكون الإنسان أشد إيثارا للحرية التي تملؤه قوة ونشاطا وتدفعه إلى الأمل والعمل وتمسكه في هذا القلق الحلو المتصل الذي لا يعرف الرضا ولا يحب الاطمئنان منه للعدل الذي لا يثير قوة ولا نشاطا ولا يدفع إلى مزيد من أمل أو عمل والذي يملأ القلوب أمنا ويعصمها من القلق والخوف.

والأمر في سائر أوربا الغربية كالأمر فيفرنسا وبريطانيا العظمى: حب مؤكد للحرية وحرص مصمم عليها وطموح إلى العدل كما يطمح العشاق العذريون على من يعشقون.

وحسبك أن تنظر على بلجيكا وهولندا فهما كبريطانيا العظمى وفرنسا تمجدان العدل وتغنيان بمحاسنه ولا تكرهان أن تحققا منه شيئا في الأرض البلجيكية والهولندية مختارين أو مضطرين ولكنهما في الوقت نفسه تؤثران الحرية أشد الإيثار: تؤثراتها في السياسة الخارجية فالعدل لم يخلق لأندونيسيا مثلا ولا للكونجو البلجيكية كما انه لم يخلق للمستعمرات البريطانية والفرنسية وللشعوب الضعيفة بوجه عام وهو أن كان قد خلق لأوروبا فإنما خلق لها لتصيب منه بمقدار كالملح الذي يصلح قليله الطعام فإذا كثر فسد له الطعام فسادا شديدا ولذلك تحتفظ بلجيكا وهولندا كما تحتفظ فرنسا وبريطانيا العظمى بحرية واسعة شديدة السعة للأفراد والجماعات وتحاولان تحقيق شيء من العدل لتسكنا هؤلاء الطامعين فيه المطالبين به الذين لا ينفكون يجأرون بطلب العدل الاجتماعي حين يمسون وحين يصبحون.

وليس من اليسير أن نتبين ميول ألمانيا المنهزمة فهي لم تظفر بعد بهذا القدر اليسير من الحرية لتعرب عما تريد في مستقبلها القائم ولكنها على كل حال قد قسمت بين المنتصرين يحتل كل منهم جزءا من أرضها وهؤلاء المنتصرون يهيئون الشعب الألماني أو يحاولون تهيئته لما يحبون ويألفون من مذهب في السياسة والاجتماع فأوربا الغربية وأمريكا تهيئان جزءا من الشعب الألماني أو تحاولان تهيئته لهذه الديمقراطية التقليدية التي تؤثر الحرية على العدل وتتخذ الإصلاح الاجتماعي وسيلة إلى إرضاء الطبقات البائسة من جهة وإلى الدفاع عن نفسها والاحتفاظ بما بقى لها من السلطان والقوة من جهة أخرى ولكن روسيا السوفيتية تحتل جزءا عظيما من ألمانيا وهي تهيئه أو تحاول تهيئته لمذهبها في السياسة والاجتماع ومذهبها واضح معروف فهي تؤثر العدل والمساواة وإلغاء التنافس والتزاحم والتفوق والامتياز على الحرية وما تستتبع من اصطراع بين الأفراد والجماعات واستباق إلى تحقيق المنافع واستئثار بهذه المنافع إذا تم تحقيقها.

وهذا الخلاف العنيف القائم بين هاتين القوتين: قوة الحرية في أمريكا وغرب أوربا وقوة العدل في روسيا هو الذي جعل حياة المنتصرين عسيرة منذ وضعت الحرب أوزارها في الشرق

والغرب وهو الذي حال بينهم وبين الاتفاق حين اجتمعوا في أكتوبر الماضي وحين اجتمعوا في أبريل ومايو ويوشك أن يحول بينهم وبين الاتفاق حين يجتمعون بعد أيام قليلة في باريس.

وليس الستار الحديدي الذي يقال إن روسيا قد ألقته من دون جزء عظيم من أوربا الشرقية والجنوبية إلا سورا منيعا يحول بين الحرية والعدل وبين أن يلتقيا وجها لوجه ويصطدمان في ميدان واحد فأوربا الغربية خاضعة للحرية وما تستتبع من تنافس وخصام وأوربا الشرقية خاضعة للعدل وما يستتبع من تسلط وقهر وكبح لجماع المنافع والأطماع وإذا أجرت الأمة اليونانية انتخاباتها بأعين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين وكانت نتيجة هذه الانتخابات ميامنة لا مباشرة قال الروسيون: أن هذه الانتخابات لم تجر حرة ولم تكن بمأمن من تدخل الديمقراطية الغربية وما يسندها من رأس المال فإذا دبرت بلغاريا ورومانيا والمجر ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا شئونها بالانتخابات أو بلا إقامة الحكومات المؤقتة وكانت نتيجة هذا كله انحراف هذه الأمم إلى اليسار قال الإنجليز والأمريكيون والفرنسيون معهم: أن هذه الأمم ليست حرة في تقرير مصيرها وإنما هي متأثرة بالسلطان الروسي العنيف في كل ما تعمل وفي كل ما تقول وليس لهذا كله معنى إلا أن الشعوب الصغيرة في أوربا قد اضطرت هي أيضا إلى التذبذب بين مذاهب الأقوياء من المنتصرين هناك ينحازون إليها وهي في شرق أوربا وجنوبها منحازة على العدل لأن الأقوياء هناك ينحازان إليه والواقع أن إرادة هذه الشعوب لم يتح لها ما ينبغي أن يتاح لها من الفرص لتظهر جلية لا يشوبها لبس ولا غموض وقد يكون الموقف الإسباني من أوضح الأشياء دلالة على هذه الخصومة بين العدل والحرية ويجب أن نلاحظ أن التسلط والقهر هما الأداتان اللتان يصطنعهما العدل كما تصطنعهما الحرية يدافع بهما كل منهما عن نفسه ويثبت بهما كل منهما سلطانه فالجيش البريطاني هو الذي أيد العدل في شرق أوربا على حساب الحرية وليس لأحد من المنتصرين جيش في إسبانيا الفاشية ولو قد وجد هذا الجيش لانحازت إسبانيا الفاشية إلى مذاهب العدل أن كان الجيش روسيا ولكن إسبانيا ليست محتلة ولذلك كان موقفها دليلا واضحا على اشتداد الخصومة بين هذين المذهبين فأما أنصار العدل وهم الروسيون والفرنسيون حين كان الأمر في فرنسا إلى اليسار فيريدون إلغاء النظام الفاشي في إسبانيا وإن أدى ذلك إلى التدخل العسكري في الشئون الإسبانية وأيسر ما يطلبونه أن تقطع العلاقات السياسية بين جميع الدول المنتصرة على اختلاف مذاهبها وبين إسبانيا الفاشية وأن تعترف الدول المنتصرة بالحكومة الإسبانية المنفية التي أقامت في أمريكا اللاتينية حينا وتريد أن تنتقل إلى فرنسا في هذه الأيام وهم يعتمدون فيما يطلبون على أن الديمقراطية المنتصرة لا ينبغي أن تسمح للفاشية بالبقاء على أن إسبانيا الفاشية قد ظاهرت ألمانيا وإيطاليا لأنها مدينة لهما مدينة لهما بالوجود ولكن البريطانيين والأمريكيين يؤمنون هنا بحرية الشعوب إيمانا يوشك أن يكون تعصبا

فالشعب الإسباني حر في اختيار الحكومة التي تسيطر على أمره وما ينبغي للسلطان الخارجي أن يتدخل في الشئون الإسبانية الخالصة ولا أن يفرض على إسبانيا حكومة وإن كانت ديمقراطية ولا أن يخلص إسبانيا من حكومة وإن كانت فاشية قد حاربت الديمقراطية وأعانت عليها ما وجدت إلى ذلك سبيلا.

ونتيجة هذا كله أن الشعب الإسباني نفسه منقسم في ظاهر الأمر على الأقل فريق منه يريد أن يعود إلى النظام الجمهوري اليساري وفريق آخر يريد أن يحتفظ بالنظام الفاشي الميامن. فأما قبل الحرب فقد أقبلت ألمانيا وإيطاليا في غير تردد على تأييد النظام الفاشي في إسبانيا بالسلاح وأما بعد الحرب وبع انتصار الديمقراطية فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تأبيان حتى قطع العلاقات السياسية مع الفاشية الإسبانية التي أعانت على الديمقراطية ودبرت لها ألوان الكيد.

فالأمر كله إذن يرجع قبل كل شيء إلى الصراع بين هذين المذهبين: مذهب الحرية الذي يعتمد على رأس المال ومذهب العدل الذي يعتمد على الشيوعية.

وكما أن روسيا ألقت ستارا حديديا من دون الشرق الأوربي والجنوب الأوربي فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تلقيان ستارا حديديا آخر من دون الغرب الأوربي وكل هذا قد يكون له خطره في مستقبل العالم ولكن هناك ما هو أشد خطرا من هذا كله وهو أن الشعوب نفسها منقسمة في حياتها الداخلية أشد الانقسام ينحاز فريق منها إلى الحرية فيتبع بريطانيا العظمى وأمريكا ويستعين بهما على خصومه أن احتاج إلى ذلك وينحاز فريق آخر إلى العدل فيتبع روسيا ويستعين بها على خصومه أن احتاج إلى ذلك وينشأ عن هذا أن تصبح كلمة الاستقلال من الكلمات الجوفاء التي لا تدل الآن على معنى محقق في حياة هذه الشعوب.

وقد كان من المضحك حقا أثناء الصراع الانتخابي في فرنسا أن يتهم أنصار الحرية خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من موسكو ويريدون أن يجعلوا فرنسا فذيلا لروسيا وأن يتهم أنصار العدل خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من واشنطون ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلا لأمريكا والواقع أن أولئك وهؤلاء كانوا يسرفون ويعلمون أنهم يسرفون فقد أصبحت فكرة العدل أساسا لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون دينا وأصبحت فكرة الحرية أساسا لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون دينا أيضا فالذين ينحازون إلى هذا المذهب أو ذاك ويؤمنون بهذا الدين أو ذاك مضطرون بالطبع إلى أن يظاهروا شركاءهم في الرأي وإخوانهم في الدين فانحاز أنصار العدل في فرنسا إلى روسيا كانحياز أنصار الحرية فيها إلى أمريكا ظاهرة طبيعية يمكن أن تقاس على انحياز المسلمين في وقت من الأوقات إلى عاصمة المسيحية في روما.

على أن هذا الاختلاف بين المذهبين لم يلبث أن تعقد بعد الحرب العالمية الأولى بظهور مذهب وسط يريد أن يحتفظ بالحرية وأن يحقق العدل في الأرض ولكنه لم ينظر إلى الحرية من حيث هي ولا إلى العدل من حيث هو وإنما نظر إليهما جميعا من ناحية خاصة هي ناية الدين فأنصار العدل من الشيوعيين والاشتراكيين يعتمدون قبل كل شيء على المادية التي تجحد الديانات جحودا تاما وتنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة لازمة لتطور تاريخي محتوم وأصحاب الحرية ولا سيما منذ الثورة الفرنسية لا يكادون يحفلون بالدين ولا يكادون يلقون إليه بالا فإذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى ويتخذ الدين أساسا لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة وترقي إلى المثل العليا وتؤمن بأن في الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه في الرقي إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسي الأول من طريق الإيمان والثقة والأمل أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان في نشوئه الخير كل الخير لأنه يصلح ما أفسدت الثورة فيرد إلى الدين مكانته في القلوب وسلطانه على النفوس ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ويكفل لهم في الوقت نفسه سعيا متصلا إلى تحقيق العدل في الأرض.

وكذلك نشأت الاشتراكية المسيحية التي لا تقيم العدل على الجبر التاريخي ولا تجعل الإصلاح نتيجة التطور المادي ولا تلغى حرية الفرد ولا حرية الجماعات وإنما تقيم أمور الناس على التعاطف والتعاون والحب وتجمع قلوبهم حول هذه المثل الإنسانية والإلهية العليا.

وليس من شك في أن أهوال الحربين العالميتين كان لها أعظم الأثر في إنشاء هذا المذهب وانتشاره في بعض الأقطار فهذه الأهوال التي صبتها الحرب على الناس وهذه الكوارث التي تغلغلت في حياة الأفراد والجماعات وهذه القسوة التي قطعت ما بين الناس من أرحام أمر الله أن توصل كل هذا قد زهد الناس في الإيمان بسلطان العلم وتفوقه وصرفهم عن هذه الفتنة التي ملأت قلوبهم وملكت أمرهم في القرن الماضي واضطرهم إلى التفكير في أن العلم ليس كل شيء وفي أن العقل ليس كل شيء وفي أن الإنسان لا يأتلف من العقل والجسم فحسب ولكن له ملكات أخرى لا ينبغي أن تهمل وحاجات أخرى لا ينبغي أن تزدري ومن أهم هذه الملكات ملكة الشعور ومن أهم هذه الحاجات الحاجة إلى ا؟لإيمان بقوة قدسية مدبرة لشئون الإنسان تسمو به إلى الخير وتنهاه عن الشر وتنأى به عن الموبقات وقد أعان على انتشار هذا المذهب وانتصاره بعد الحرب العالمية الثانية أن أتيح حق الانتخاب للنساء في أكثر الشعوب الأوربية بعد أن كلن لهذا الحق مقصورا على الرجال ولذلك انتصرت الاشتراكية المسيحية في فرنسا أخيرا بانتصار الحركة الجمهورية الشعبية على حساب الاشتراكيين الماركسيين وانتصرت الديمقراطية المسيحية في إيطاليا على حساب الاشتراكية الماركسية أيضا وأصبحت هذه الاشتراكية المسيحية

الجديدة قوة لها خطرها في الحياة السياسية لأوربا الغربية بوجه عام ولست أدري أيتاح لهذه الاشتراكية المسيحية فوز متصل أم هي أعقاب الحرب لا تكاد تمضي عليها الأعوام حتى تعود الحياة الأوربية إلى طبيعتها ويستأنف الصراع عنيفا بين المذهبين: مذهب الحرية ومذهب العدل ذلك أن هذا المذهب الاشتراكي المسيحي جميل رائع في نفسه مثله في ذلك مثل مذهب العدل ومذهب الحرية ولكنه لا يكاد يخرج إلى الوجود اليومي ويعالج مشكلات الحياة الطارئة حتى يصيبه ما يصيب المذهبين من هذه الأعراض التي تبغضه إلى فريق من الناس وتحببه إلى فريق.

فالاشتراكية المسيحية لا تلغى رأس المال وإذن فسيطمئن غليها رأس المال وسينفر منها طلاب المساواة الخالصة والعدل المطلق والاشتراكية المسيحية لا تنكر الإصلاح الاجتماعي وإنما تدفع إليه دفعا وقد تتطرف فيه أحيانا وإذا فيستغلها المتطرفون لتحقيق بعض ما يريدون وسيشفق منها المحافظون لأنها تكلفهم أكثر مما يريدون أن يتكفلوا والاشتراكية المسيحية بحكم عنوانها واستمساكها بالدين مضطرة إلى مصانعة الكنيسة أو قل إلى طاعة الكنيسة وإرضائها وإذن فسينفر منها جمهور ضخم من الأوربيين ومن المفكرين الذين قطعوا ما بينهم وبين الكنيسة من الأسباب منذ وقت طويل وخذ مثلا واحدا لهذا الموقف الوسط الذي يضطر الاشتراكية المسيحية إلى الحرج في بلد كفرنسا فهذه الاشتراكية المسيحية تطالب بحرية التعليم التي يطالب بها المحافظون الغلاة وحرية التعليم هذه ينكرها عدد ضخم من الفرنسيين الذين ناصروا الفصل بين الكنيسة والدولة والذين حملوا الجمهورية الفرنسية الثالثة على أن تجعل التعليم من شأن الدولة خاضعا لسلطانها ملتزما للحيدة الدينية الكاملة فليس بد إذا من أن تجد الاشتراكية المسيحية كثيرا جدا من العناء حين تعالج هذه المسألة لأن أنصار العدل الماركسي لم يضعوا ولم يستيئسوا وإنما هم محتفظون بقوتهم التي تزداد انتشارا وانتصارا من يوم إلى يوم فالاشتراكية المسيحية في حقيقة الأمر توشك أن تكون طورا من هذه الأطوار الانتقالية التي تطمئن إليها الشعوب حين تجهدها الحرب وتكلفها الأزمات من الجهد والمشقة ما لا تطيق فإذا ما استجمعت واستردت قوتها ونشاطها ضاقت بالمواقف المتوسطة واستأنفت الصراع بين القديم والجديد بين المحافظة والتطرف أو قل أن شئت بين الاستمساك بالحرية والطموح إلى العدل.

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن طبيعة الإنسان تدفعه دائما إلى الترقي فهو لا يبلغ من الرقي طورا حتى يسمو إلى طور خير منه وحاجة من عاش لا تنقضي كما يقول شاعرنا العظيم والحضارة الإسبانية المادية مسرعة إلى التطور وإلى تيسير الترف وإذاعته وجعله في متناول الناس جميعا فليس للإنسانية بد من أن تلقى على نفسها دائما هذا السؤال: لماذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر على فريق آخر؟ لماذا يفرق بين الناس في الاستمتاع بالحياة

على حين يسوي بينهم في الدخول إلى الحياة والخروج منها؟ لماذا يعمل العامل ويزرع الزراع ويملأ كلاهما الأرض بأسباب الترف ووسائل النعيم لينتفع بنتيجة هذا العمل فريق من الناس لا يعملون ولا يزرعون ولا يبذلون جهدا ولا يحتملون في الحياة عناء؟ ولماذا يتاح الفراغ لقلة من الناس ويفرض العناء على كثرتهم هذه الأسئلة ألقيت على الناس منذ أقدم العصور ولكنهم لم يحققوها في أنفسهم كما يحققونها الآن وهم يعتقدون مصيبين أو مخطئين راضين أو كارهين أن العدل يجب أن يكون هو الغاية الأخيرة للحياة وأن المساواة الصحيحة في تمكين الناس من أن ينتفعوا بهذا العدل هي الوسيلة إلى تحقيق هذه الغاية الكبرى فإذا ذكرت لهم الحرية ومآثرها ومحاسنها وما أكثر ما للحرية من مآثر ومحاسن فسيقولون لك أن الحرية لن تطعم الجائع ولن تكسر العاري ولن تسقي الظمآن وسيقولون لك أن الرجل البائس لا يستطيع أن ينتفع بحريته لأن الحرية لا تغني إلا مع الاستطاعة وسيقولون لك أن الحرية خير ما في ذلك شك ولكن بشرط أن تمنح للناس بعد أن تتحقق بينهم المساواة ويستقر بينهم العدل ويصبح بمأمن من كل عبث ومن كل طغيان وسيقولون لك أن الحرية إذا منحت للناس قبل أن يستقر بينهم العدل أثارت بينهم التنافس وأذاعت بينهم البغض وأشاعت فيهم الطمع والحسد والحقد وجعلت بغضهم لبعض عدوا وسيستدلون بالتاريخ كله على هذا كله وسيقولون يجب أن يتحقق العدل أولا وان يتساوى الناس في الانتفاع بالحياة كما تساووا في الدخول إليها والخروج منها فإذا تم لهم ذلك فامنحهم الحرية أن شئت فلن تعرضهم للشر ولن تثير بينهم كيدا ولا مكرا ولا غدرا ولا عداء.

وقد تعترض عليهم بأن تحقيق العدل الذي يريدونه والمساواة التي يطمحون إليها ويطعمون فيها يدعو إلى كثير من الشر وأول هذا الشر إلغاء الحرية وإنزال القوي عن قوته والمتفوق عن تفوقه والغني عن غناه وحمل الناس على ألوان من الحياة متشابهة بغيضة لتشابهها وأخذه بالعنف حتى يحملوا على الجادة ويهتدوا إلى الصراط المستقيم وقد تضرب لهم الأمثال بما يجري هنا وهناك في البيئات التي حاولت تحقيق العدل والمساواة من العنف المنكر والتسلط الذي لا يطاقوا لكنهم سيجيبونك دائما بأن الإنسانية مريضة وبأن شفاء المريض لا يكون بمداعبته وتدليله وإنما يكون بحمله على تعاطي الدواء مهما يكن مرا بغيضا ويحمله أحيانا على ما هو أشق وأجهد وأثقل ثقلا من الدواء اثر البغيض.

فالإنسانية بين اثنتين: إما أن تريد الشفاء فتسلك إليه طريقه المستقيمة وإما أن تؤثر المرض فتشقى بآلامه وأثقاله حتى يدركها الفناء وكذلك ستظل الإنسانية مضطربة بين هذين المذهبين: مذهب العدل وما يقتضي من وسائل قد تكون منكرة في كثير من الأحيان ومذهب الحرية وما يستتبع من نتائج ليست اقل من وسائل العدل نكرا ومن يدري لعل يوما من الأيام قريبا أو بعيد يرى ذلك الفيلسوف الذي يبتكر للإنسانية مزاجا معتدلا من الحياة يتحقق فيه العدل

من غير عنف وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولا شقاء ويرحم الله عمر فقد أراد أن يحمل المسلمين على ذلك ومضى بهم في سبيله قدما وحقق لهم منه شيئا كثيرا ولكن الشاعر الذي رثاه لم يخطئ حين قال:

عليك سلام من إمام وباركتْ ... يد الله في ذاك الأديم الممزقِ

فمن يسعى أو يركب جناحي نعامة ... ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها ... بوائق في أكمامها لم تفتَّقِ